

النسق الثقافي في رواية الإعصار والمئذنة لعقاد الدين خليل

أ.م.د. علي احمد محمد العبيدي*

تاريخ قبول النشر

٢٠١٩/٨/٢٨

تاريخ استلام البحث

٢٠١٩/٥/٦

ملخص البحث:

إن النسق الثقافي هو نشاط إنساني هدفه البحث في جوهر الإنسان بتوجهاته وتشكلاته كلها، ويحمل الخطاب الروائي في تجلياته النصية طابعاً واقعياً وتوثيقياً، يشتغل فيه التخيل في نسق سردي منسجم يسهم في بناء دلالات خاصة، وتمير قيم محددة لإعادة بناء الوقائع.

The cultural context in the novel (Hurricane and Minaret) Imad Eddin Khalil

Dr .Ali A.M .Alubaidi
Mosul Studies Centre
Abstract

The cultural context is a human activity whose purpose is to research the essence of the human being in all its orientations and formations . The narrative discourse in its textual manifestations bears a factual and documentary character, in which the imagination works in a harmonious narrative format that contributes to the construction of special meanings. And pass specific values to rebuild reality.

المقدمة:

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة البحث في تحديد فاعلية النسق الثقافي في رواية الإعصار والمئذنة.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى الكشف عن آليات عمل النسق الثقافي في رواية الإعصار والمئذنة.

حدود البحث:

تحدد البحث بقراءة رواية الإعصار والمئذنة للكاتب عماد الدين خليل .

* استاذ مساعد، قسم الدراسات الادبية والتوثيق، مركز دراسات الموصل، جامعة الموصل.

أهمية البحث:

الكشف عن دور النسق الثقافي في رواية الإعصار والمنذنة.

هيكلية البحث:

التمهيد:

- مدخل الى مفهوم النسق والنسق الثقافي.

- عماد الدين خليل وتشكلات الهوية الثقافية.

أولاً: النسق الثقافي: آليات التشكل وعملية الرصد.

ثانياً: جماليات الأنساق الثقافية في الرواية.

الخاتمة:

هوامش البحث ومصادره:

التمهيد:

- مدخل الى مفهوم النسق والنسق الثقافي.

النسق لغة: من الفعل (نَسَقَ)، يُنَسِّقُ، نَسَقًا، فهو (ناسق) والمفعول (منسوق) ومنه (التنسيق) بمعنى: التنظيم؛ فالنسق: ما كان على نظام واحد من كل شيء؛ فيقال: نَسَقَ الشيء، ينسقه: نظمه على السواء، وكلام نَسَقٌ متلائم على نظام واحد، وقد أطلق النحويون على حروف العطف: فقالوا حروف النسق، لأنها إذا عطفت شيئاً عليها، جرى مجرى واحداً^(١).

وفي **المفهوم الاصطلاحي**، فإن مفاهيم النسق قد تعددت وتتنوعت معانيه بحسب الدارسين، فقد عُرفَ على وفق الاصطلاح المنطقي بأنه "جملة من العبارات المستخلصة من اللغة السليمة بطريقة اللزوم المنطقي"^(٢) ويطلق على النسق في علم اللغة الحديث بأنه كل "نظام ينطوي على استقلال ذاتي يشكل كلاً موحداً، أو تأتي مرادفة لمعنى (البنية) أو معنى النظام بحسب دي سوسير، والتي يقصد بها-اي البنية-بانها "نسق من العلاقات الباطنة (المدركة وفقاً لمبدأ الأولوية المطلقة لكل على الأجزاء) له قوانينه الخاصة المحايثة، من حيث هو نسق يتصف بالوحدة الداخلية والانتظام الذاتي، على نحو يفضي فيه أي تغيير في العلاقات الى تغيير في النسق نفسه، وعلى نحو ينطوي معه المجموع الكلي للعلاقات على دلالة يغدو معها النسق دالاً على معنى"^(٣) ويتجلى مفهوم النسق الثقافي في نتاج حقلين معرفيين هما الأنثروبولوجيا والنقد الحديث والنسق مفهوم ليس جديداً بالمطلق، فقد جرى توصيفه في مفاهيم قريبة من هذا المفهوم في مجال الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والنقد الحديث.

يمكن القول في ضوء ما تقدم ان مفهوم النسق الثقافي هو مصطلح تولد من التقاء مفهوم النسق مع مفهوم الثقافة وهو يشمل النظم الاجتماعية والدينية والثقافية المتفاعلة فيما بينها التي يكتسبها الانسان في مجتمع ما، وهي ذات صلة وثيقة بإنتاج أي خطاب ابداعي كان أو فكري. ويُعرّف النسق بحسب كتاب دليل الناقد الأدبي بأنه "الأداة الإجرائية المستخدمة في النقد الثقافي والنسق الثقافي هو العناصر المترابطة والمتفاعلة والتمايزة التي تخص المعارف والمعتقدات والفنون والأخلاق والقانون وكل المقدسات والعادات الأخرى التي يكتسبها الانسان في مجتمع معين، فالنسق هو تركيب لمفهوم (النسق والثقافة)^(٤).

ونجد إذا ما انتقلنا بمصطلح (النسق) الى مجال النقد الأدبي، أنه قد حظي باهتمام النقاد المُحدثين. ولاسيما لدى المهتمين بالنقد الثقافي. إذ يعدّ ما يصطلحون عليه بـ (النسق الثقافي) مفهوماً إجرائياً مركزياً في هذا الاتجاه النقدي، ويقصد بـ (النسق الثقافي) لديهم "مجموعة من القيم المتوارية خلف النصوص والخطابات والممارسات"^(٥) سواء أكانت هذه القيم أيديولوجية أم اجتماعية أم سياسية. وهذه القيم هي وسائل جمالية تعتمد المجاز وينطوي تحتها نسق ثقافي ونحن نستقبله لتوافق السردية وتواطئه مع نسق قديم منغرس فينا^(٦) ولا بدّ أن يرجع النص الابداعي إلى نسق وسياق، وبين النسق والسياق علاقة جدلية تفاعلية، فالنسق متصل بالتشكل عبر التراكم التاريخي لمنظومة الأفكار والعلامات، والتشكل يحدث في سياقات، والسياقات متصلة بأنساق قيمة وثقافية، وإحالة النص مرتبطة بمكونات ومؤثرات لا بد للمبدع أن يرجع إليها.^(٧)

ومما لا شك فيه أن ثمة علاقة بين الخطاب والأنساق الثقافية "لأن الأنساق الثقافية تهدف إلى إيصال رسالة ما، ولكي تقوم بعملها لا بد من توافر المرسل والمستقبل والخطاب وهو الرسالة المراد إيصالها"^(٨) والنسق الثقافي بطبيعة الحال ليس له وجود ثابت ومستقل، فهو يتحقق ضمن وجود نصوص أخرى تُداعبه أحياناً، وقد تُشوشه أحياناً أخرى... إلا أنها لا تقضي في الغالب سوى إلا تثبيت متزايد له.^(٩) وخطاب الرواية هو خطاب أدبي يفتش المعرفة ويستند الى التاريخي والاجتماعي والجمالي، وهو دال وعاكس للمعارف والممارسات الثقافية، وهو مادة ثقافية تبلور التصورات والممارسات السائدة فتحولها إلى رموز وإحالات تحيل على أنساق ثقافية تتحرك في المجال الثقافي لعصر النص.

- عماد الدين خليل وتشكلات الهوية الثقافية.

يعد الكاتب عماد الدين خليل من الكتاب الذين تتعدد مواهبهم الإبداعية، فهو مفكر ومؤرخ وناقد وشاعر وروائي وقاص ومسرحي، وقد اجتمعت هذه المواهب كلها في نسيج رواياته، يمتاز

النسق الثقافي في رواية (الإعصار والمنذنة) لعماد الدين خليل

عالمه الروائي بالغمى والثراء، ويجتمع في رواياته التاريخ والفن والخيال والفكر واللغة الشعرية، ليستخدم صوت الراوي العليم، ومشاركة الشخصيات بأصواتها عن طريق الحوار، فقد كان قادراً على الولوج في أعماق الشخصيات والتحدث بلسانها. واستمد عالمه الروائي مادته الأساسية من التاريخ واتكأ عليه، لينطلق منه الى عرض أفكاره وتصوراتهِ للحياة. إذ استعان بعلمه الغزير الواسع وقدرته على سرد الوقائع التاريخية بلغة شعرية و بناء سردي شيق يتخلله حوار هادف، ونلمح الإبداع الفني والبراعة اللغوية، والمزج بين السرد والحوار والتطويع للخيال، بأسلوب يجذب القارئ ويشده منذ بداية الرواية حتى بلوغ النهاية، ورواياته في مجملها تعكس استمرارية الروائي في البحث والتجريب، وتعكس ثقافته الواسعة، فضلاً عن قدرته على التلاعب بالمفردات ورمزيتها ومعانيها البعيدة للوصول إلى الهدف الفكري.

وهو من مواليد مدينة الموصل (١٩٤١) حصل على البكالوريوس (الليسانس) في الآداب بدرجة الشرف من قسم التاريخ بكلية التربية/ جامعة بغداد عام ١٩٦١، والماجستير في التاريخ الإسلامي بدرجة جيد جداً من معهد الدراسات العليا بكلية الآداب/ جامعة بغداد عام ١٩٦٥، عن رسالته الموسومة بـ (عماد الدين زكي) والدكتوراه في التاريخ الإسلامي بدرجة الشرف الأولى من كلية آداب جامعة عين شمس في القاهرة عام ١٩٦٨، عن رسالته الموسومة (الإمارات الأرتقية في الجزيرة الفراتية والشام).

عمل مشرفاً على المكتبة المركزية لجامعة الموصل عام ١٩٦٨ ثم معيداً، فمدرّساً، فأستاذاً مساعداً، في كلية آداب جامعة الموصل للأعوام ١٩٦٧-١٩٧٧ وباحثاً علمياً، ومديراً لقسم التراث، ومديراً لمكتبة المتحف الحضاري، في المؤسسة العامة للآثار والتراث. المديرية العامة للآثار ومتاحف المنطقة الشمالية في الموصل للأعوام ١٩٧٧ - ١٩٨٧ حصل على الأستاذية عام ١٩٨٩، وعمل أستاذاً للتاريخ الإسلامي ومناهج البحث وفلسفة التاريخ في كلية آداب جامعة صلاح الدين في أربيل للأعوام ١٩٨٧-١٩٩٢، ثم في كلية التربية جامعة الموصل ١٩٩٢، ٢٠٠٠.

- أشرف على عديد من طلبة الماجستير والدكتوراه في التاريخ الإسلامي.
- كُتِبَ عن أعماله عديد من رسائل الدبلوم العالي والماجستير والدكتوراه في العديد من الجامعات العربية .
- ترجمت مجموعة من مؤلفاته إلى عدد من اللغات ولاسيما الانكليزية والفرنسية والتركية والفارسية والكردية والاندونيسية .

- نشر عشرات البحوث في العديد من المجالات العلمية والأكاديمية والمحكمة
- نشر مئات المقالات والبحوث الثقافية والأعمال الأدبية (دراسة وتنظيراً ونقداً وإبداعاً) فيما يقارب السبعين مجلة وصحيفة عربية وإسلامية.
- اقيمت عنه عديد من المؤتمرات والندوات العلمية داخل العراق وخارجه.
- نشر مؤخراً سيرته الذاتية تحت عنوان (أشهد أن لا إله إلا أنت) عن دار ابن كثير، دمشق ٢٠١٩.

أولاً: النسق الثقافي آليات التشكل وعملية الرصد.

يحمل الخطاب الروائي في تجلياته النصية طابعاً واقعياً وتوثيقياً، يشتغل فيه التخيل في نسق سردي منسجم يسهم في بناء دلالات خاصة وتمرير دلالات وقيم محددة. تحدثت رواية (الإعصار والمئذنة) عن ثورة الموصل التي قام بها عبد الوهاب الشواف ضد المد الشيوعي وأنصار السلام أبان حكم عبد الكريم قاسم للعراق، وقد سجلت الرواية جانباً من الأحداث العسكرية التي حدثت إبان الثورة، بالاعتماد على الوقائع التاريخية، يقول محمد رشدي: "يمكن أن نستشف من رواية الإعصار والمئذنة معنى عميقاً ذا شقين، الشق الأول: انكشاف لا جدوى معاكسة التقاطع مع القناعات الإيمانية المستقرة في ضمير هذه الأمة وضرورة العودة من رحلة الاغتراب والجحود والذوبان فيما رضي به الآخر لنفسه من رؤى أو فرض عليه، وثانيها: حتمية تولي المقين المتمرسين المستكملين لشرائط التمكين زمام المواجهة بين حراس المآذن والقافرين على متن الأعاصير"^(١٠).

تبني الآلية البنائية التي اتبعتها عماد الدين خليل في روايته (الإعصار والمئذنة) جدارين كبيرين، وذلك لأنها اعتمدت على ما يعرف بـ (ما وراء السرد التاريخي) الذي يشكنا بمصادقية الحدث التاريخي، مما يجعلنا نصطدم بجدار مدى اهلية هذه الاحداث لعكس الثقافة والسمات الاجتماعية المهيمنة في تلك الفترة ونصطدم بجدار قوة الحجة التي من الممكن أن نضعها لأخذنا هذه الاحداث التي تبني الرواية على اعتبار انها نوع من تمظهر الذات الثقافية للكاتب، وجزء من مضمرات الهوية الثقافية له. ما الذي ستؤديه الهوية في رسم البناء الثقافي المتحكم في الرواية، اذا كان الاطار واحداً وثابتاً؟ سنجد ذلك إن دققنا في رواية (الإعصار والمئذنة)، التي تبدو كأنها تحليل ضمني للفعل الجماعي، الذي يقود ويصنع الفكر الايد لوجي، ويؤسس الهويات الفرعية، إذ ان التركيز كان منصباً كما هي الحال في بعض من روايات عماد الدين خليل؛ على الطرح الهوياتي الذي يمر فيه المجتمع العراقي، وصراع المنظومات السياسية الذي يشكل نسقاً ثقافياً، لذا

النسق الثقافي في رواية (الإعصار والمئذنة) لعماد الدين خليل

اعتمدت الرواية على ثنائية متقابلة هي (الانتماء/ اللا انتماء) وعدم انحياز الراوي لأي منهما. كما وتُبرز رواية (الإعصار والمئذنة) معنى السلطة والتسلط، تبعاً لمركزها الرسمي والواقعي، وتبعاً لمؤسساتها التي تفرض سلطتها على من ينتمون إليها، أو يتعاملون معها. وقد تمثل ذلك ببُعدين أساسيين في الرواية هما: السياسي والثقافي، وما تنطوي تحت مظلته -البعد الثقافي- من جزئيات تفصيلية تفصح في مجملها عن الأنساق الثقافية الخاصة لمجتمع الرواية.

" وكان بمقدور هاشم عبد السلام، وقد أشعل نفوسهم وصعد بها صوب نقطة التوتر القصوى، أن يقودهم في تظاهرة هادرة، وأن يتحدى بهم ليس انصار السلام فحسب، بل السلطة نفسها..."(١١)

تمثل رواية (الإعصار والمئذنة) نوعاً من الخطابات التي لم تتخلص من الصراع الأيديولوجي الذي كان في الزمن الروائي، الذي تمثل بالصراع بين تيارين، التيار الماركسي، والذي مثله كل من (يونس عتاله وحنا جرجيس) والتيار الإسلامي، الذي مثله (عبد الرحمن داود وابنته سلمى وهاشم عبد السلام) أما على مستوى الشخصيات فقد تمثل الصراع بين شخصيتين هما (عاصم ويونس عتالة) وقد مثل الأول الطبقة الأرستقراطية، في حين مثل الآخر الطبقة الكادحة، الأمر الذي جعله يحقد حقداً طبقياً على صديقه (عاصم). أو أن الرواية قد أفادت مما أنتجته العلوم الاجتماعية الأخرى كالتاريخ وعلم الاجتماع والسياسة، على أساس أن النص يمثل منتجاً ثقافياً يتم البحث فيه عن مجموع أنساقه الثقافية، وذلك بالحوار الذي تم بين هاشم عبد السلام وحنا جرجيس.

"إن أنصار السلام إذا أردت الحق لا يعدون أن يكونوا إحدى واجهات الحزب الشيوعي، وإنك تعرف جيداً كم يتصاعد الغزل هذه الأيام بين الشيوعيين وبين عبد الكريم قاسم، وكيف أنه اتخذهم أدوات لتدمير كل من يقف في طريقه، ولا أعتقد أن مثقفاً جاداً يحترم الإنسان يمكن أن يبرر الطغيان أو يسمح لنفسه بأن يغدو أداة لحمايته"(١٢)

تشكل رواية عماد الدين خليل (الإعصار والمئذنة) مناسخاً واقعياً موصلياً بامتياز. إذ تتخذ من مدينة الموصل مكاناً للحدث لما يحمله هذا المكان من شحنات نفسية واجتماعية وثقافية أسهمت في تشكيل اللاوعي الجمعي لأبناء المدينة، وتعد من ثم بيئة حضارية حاملة لأنساق ثقافية وتاريخية مضمرة تبرز من طبيعة المكان، لذا خلع عليها الكاتب العواطف والأحاسيس وأسننها فجعلها تحس وتتحدث كالبشر أيضاً:

"وحيث تميل الجدران المعلقة بالمرمر الأزرق الجميل على بعضها، وكأنها تتحدث الى بعضها، مضيئة الخناق على المازة.. وحينذاك كان سكان الزقاق يلجؤون الى إسناد جدرانهم المتداعية بأعمدة غليظة من الخشب، خشية أن تهوي بعضها على بعض صباة وهياماً!! جميلة هي محلات الموصل القديمة.. بأفائها الظليلة، بنسائمها الرطبة، بطرفاتها الملتوية غير المرصوفة، بتكويناتها المعمارية المتقنة، بقناطرها المعقودة، بدورها التي تُعدّ آية في قدرة البناء الموصلي على اعتماد المرمم الأزرق واللعب به والتفنن على واجهته.. حيث الزخارف المتقنة، والنوافذ الصماء، والأعمدة الاسطوانية، والتشكيلات الجمالية التي تستهوي العيون وتستجيب لأشواقها.."^(١٣)

ولعل اختيار الكاتب لشخصيات ذات كثافة نفسية واجتماعية تقف بالضد من الواقع الذي يسوده التسلط تتمثل بشخصية (هاشم عبد السلام)، وشخصيات قد منحت نمطاً ثقافياً ذا بنية محددة أفقدتها القدرة على صناعة واقع حقيقي، كما في شخصية (عاصم) إذ لم يستطع إيجاد حلول عملية لتحقيق العدالة والانتصار على الذات، إنه شخص متردد عاجز عن اتخاذ قرار حاسم في الحدث الهائل الذي سحق مدينة الموصل في ظل الموت المجاني الذي حدث فيها.

"فها هو الآن يقف على الخط الزمني والمكاني الفاصل بين أن يكون معهم وبين أن يظل متفرجاً.. كان يحس أنه يقف تماماً عند نقطة انعدام الوزن بين الشد والجذب.... وكان يكافح لكي يتشبث بما يرجح ميله صوب هذا الموقف أو ذاك، فما وجده بسهولة."^(١٤)

وقد أبرزت الرواية نظرة واضحة تخص المرأة/ الشخصية البطلية تتمثل بشخصية (سلمى) التي ألت الدور الأساس في سير الأحداث، وشكلت الرابط السردي داخل العمل الروائي، فمنحته بُعداً تخييلياً أسهم في بناء الفضاء الدلالي للنص.

ثانياً: جماليات الأنساق الثقافية في الرواية:

١- المكان/ وظلال المحلية:

رصدت الرواية عديداً من الأمكنة الخاصة بمدينة الموصل وأعطتها بعداً روحياً. إذ وظف الكاتب المكان بوصفه بنية جمالية تحمل نسقاً ثقافياً لمجتمع معين، كما أن صورة المكان في الرواية لا تشكل مقطعاً روائياً منفصلاً في مضامينه عن جسد النص، وإنما تتعدد فاعلية المقطع المكاني في الرواية حدود الصورة المكانية وتتجاوزها لتكشف بذلك النسق الثقافي للمجتمع الموصلي الذي يمثل المرجع الواقعي الاجتماعي الذي تنتقل عنه الرواية. فقد تشبعت الرواية بالوصف الدقيق

النسق الثقافي في رواية (الاعصار والمنذنة) لعماد الدين خليل

لعدد من الأمكنة التي احتوتها مدينة الموصل، من شوارع و(دورات) متعددة ، لذا قدم لها الكاتب وصفاً جمالياً تعدى المكان ليحيلها نسقاً جمالياً وثقافياً لمدينة الموصل.

وقد قدّم الراوي الأمكنة المتعددة لمدينة الموصل ومنحها وصفاً تفصيلياً بنزعة تاريخية تؤرخ الأمكنة وتسعى لتقديمها^(١٥) على وفق ما يأتي:^(١٦)

- بيت عبد الرحمن المنتصب بحلانه الأسمر وجدرانها المبنية بالجبس والحجر.
- شارع الغزلاني الرئيس الذي يخترق الموصل من أقصى الجنوب الى أقصى الشمال.
- المعسكر الذي يستقر فيه اللواء الخامس الذي يتزعمه العقيد عبد الوهاب الشواف قائد الثورة.
- المستشفى والدور التي حول المعسكر.
- دورة العمري القريبة من دار عبد الرحمن والد سلمى.
- دورة باب الجديد.
- شارع الصديق باتجاه محطة القطار.
- شارع ذي النورين باتجاه قلب المدينة.
- باب لكش وباب الطوب والجسر القديم وشارع الفاروق.
- دورة الساعة وانتصاب البرج الذي يعود لكنيسة الآباء الدومنيكان.
- شارع نينوى الذي يبدأ بالجسر القديم منتهاً بمنطقة رأس الجادة.
- رأس الجادة التي كانت منطلقاً أبدياً للتظاهرات في العهد الملكي.

لقد أصبحت الأمكنة في (مدينة الموصل) منطلقاً لما سيجري من أحداث فيها، وقد قدمها الراوي لنا بوصفها نظاماً من العلاقات الوثيقة فضلاً عما توصله من الاحساس بمغزى الحياة من خلال وظيفته-المكان- كونه مركزاً للحدث وعنواناً للشخصية يبرز سماتها وانتماءها الاجتماعي، فضلاً عن تحميله للأفكار والمشاعر والحدس، لذا يتداخل مع عناصر العمل الروائي متأثراً بها ومؤثراً فيها^(١٧).

٢- الزمن/ زمن الموت:

يشكل الزمن احدى الركائز الأساسية للنص الروائي، ويعد وجوده في العملية السردية حتمياً، فلا يتحقق السرد من دونه^(١٨) وتظهر تجليات الزمن في الرواية بأحداثها المتناوبة بين (الصباح والمساء) وفقاً للأحداث التي عصفت بالمدينة مكان الحدث، فقد أصبحت الموصل في تلك الفترة مكاناً للقتل والرعب والعنف.

" كان الوقت مساءً وقبل دقائق فحسب هبطت تلك اللحظات التي لا تعرف مدينة الموصل حلاً وسطاً، فهي إما أن تقطر كآبة، وإما أن ترق وتترق حتى يخيل للمرء أنه يتلقى نفحة من ريح الجنة. ومنذ أسابيع لم يعد أحد يعرف حلم المساء السعيد، لقد مالت الكفة بالاتجاه الآخر، فما هي إلا الكآبة التي تتكاثر حتى تغدو رماداً ودخاناً"^(١٩).

لقد كانت الأحداث التي تمرُّ بالموصل ضبابية وبعيدة عن الوضوح والظهور، مما أدى الى انعكاس ذلك على الشخصيات التي كانت بدورها تتخبط ولا تعرف ما الذي سيحلّ بالمدينة، ومن ثم سينعكس سلباً على ما تحمله تلك الشخصيات من أبعاد ايجابية، فجعلها تتراخي أو تتماهي مع هذه الأحداث، وهذا ما نجده في شخصية عاصم التي كانت متذبذبة مع الأحداث التي حدثت في المدينة.

٣- بلاغة تشكيل الهوية:

أعطت الرواية للهوية الموصلية مساحة واسعة للتعريف بها، بالتوصيفات التي قدمها الراوي في مواضع عديدة من المتن الروائي، شكلت بعداً مهيمناً في النص الروائي نستطيع بوساطته معرفة تشكل الهوية الموصلية الخالصة.

لقد انشدت أغلب أحداث الرواية الى تاريخ إعصار أو عاصفة دموية أصابت الموصل، وما أنتجت ثورة الشواف من انفكك مؤقت من أسر الحكم الديكتاتوري؛ فقد شحنت الرواية بالعديد من المواقف التي يبنى بها المنظور الروائي وهو مما يميز السرد التاريخي عن السرد التخيلي، ويمنح الرواية ذات العمق التاريخي الأهمية والقيمة الإبداعية، إذ بهذه التعليقات والتعقيبات على المسرود من قبل (الراوي العليم) لا تكون الرواية مجرد وثيقة تخبر بما جرى وتستعيد ما انقضى من أحداث، وإنما توحى بأن المنارة التي قد بنيت في قلب المدينة هي قلبها النابض بالحياة، لذا أخذت المدينة التسمية منها (الحدباء) وأن ارتفاع المنارة عالياً ما هو إلا دليل على عدم انحناء المدينة للتحديات كلها التي تواجهها عبر العصور.

"ها هي ذي المنارة المتفرّدة التي بناها يوماً نور الدين محمود، قاهر الغزاة الصليبيين.. الموحّد والمحزّر.. واختار لها مكاناً في قلب المدينة، ومدّ أسبابها الى السماء لكي تبرز واضحة للعيان من أي مكان يلقي منه المرء بصره...شاهدة على أنه ما من أحد يقدر على تغيير وجه المدينة الأصيل"^(٢٠).

وهنا تعلن الموصل بالزمن الانتماء لهذه المنارة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وستبقى ثابتة بمبادئها الراسخة كثبات المنارة^(٢١).

النسق الثقافي في رواية (الاعصار والمنذنة) لعماد الدين خليل

ومن أمثلة تشكل الهوية الموصلية التي منحها الراوي هذا البعد الثقافي ما نجده من توصيفات متعددة للوحدات التي يتكون منها البيت الموصل:

"صعد درجات ثلاث باتجاه الايوان الذي يتصدر الحوش كالعادة، كان الدار رغم فقره الواضح يتضمن الكثير من الوحدات المعمارية للبيت الموصل القديم الذي غدا جزءاً أصيلاً من تراث مدينة يمتد عمرها مئات السنين، الايوان العالي ذو القوس المدبب اللوحة الجبسية التقليدية التي تتصدره بأية كريمة أو مثل سائر أو حكمة بالغة والتي يتعاشق فيها الأبيض والأزرق بتناغم بديع"^(٢٢)

من المعلوم بأنه من غير المجدي أن نبحث في الخطاب الروائي ونحاول أن نحمل اسقاطاته الثقافية؛ لأن خطابه رسمي نمطي يعتمد على أطر عامة، لذا سندع الربط المباشر بين الأنساق الثقافية المضمرة داخل الخطاب وخطاب الرواية العام؛ يتكشف في الاشارات التي سنجملها عنه، والتي ستظهر الأنساق والسمات المنضوية في خطاب الرواية، لأن أي فعل للشخصية الروائية هو واجهة إشارية أو (موقف) اجتماعي يُضمّر مرجعيات ثقافية مهيمنة، تستبطن الفعل الثقافي المضمّر، أي الفعل الثقافي الجمعي الذائب في ذلك الموقف. وقد تمثل ذلك الموقف بشخصية (هاشم عبد السلام) تلك الشخصية الايجابية التي كان لها دور في صنع الأحداث، وكان يبتغي من ذلك تغيير الواقع المعاش في المدينة، وقد تحمل هذه المسؤولية وما يتبعها من مخاطر قد يدفع بحياته ثمناً لها في ظل الاحداث التي تهدد أمن الناس وسلامتهم واستقرارهم، عبر المد الشيوعي القادم من العاصمة، فقال مستقهماً:

"أستطيع قوة في الأرض أن تنتزع عنا ملامحنا، وأن تغير بصمات أصابعنا؟ قال، وهو يتذكر تحدي بعض الشيوعيين بأنهم لو أتيح لهم الانتصار، فلن يبقوا منارة واحدة في البلد يرتفع منها النداء الى الله، إن الموصل أعلنت انتماءها منذ قرون الى منارتها العالية أخذت منها اسمها واكتسبت عظامها العارية بقوة الروح التي تبثها لحماً ودماً"^(٢٣)

لا يمتلك خطاب الرواية لا يمتلك أية خصوصية ثقافية فردية، لذا نجد خطاب (جماعة أنصار السلام) في الرواية هو نتاج فعل جمعي للشخصية الروائية الخاضعة لهيمنة السلطة وتصرفاتها، محكومة بأطر ثقافية تبنتها هذه الجماعة. أما الأفعال الفردية للشخصيات الأخرى في النص الروائي غير الخاضعة لتلك الجماعة فتخضع لمحددات نسقية تبنتها هي لنفسها كما هي الحال في العلاقة التفاعلية بين الشخصيات الرئيسية (هاشم عبد السلام وعبد الرحمن وسلمي).

" وعرفت سلمى أنها الآن تأخذ مكانها على خارطة اخرى، غير الخارطة الشخصية التي نشرها عاصم بين يديها... خارطة تمتد خطوطها وانحناءاتها... وتمتد... لكي تحتضن العالم كله، والعقيدة والانسان.... إنها الآن، أقرب الى الله من أي وقت مضى" (٢٤).

٤- نسق التقابلات والتناقضات في الرواية :

وقد تمظهر ذلك في اعتماد المؤلف على تعانق التناقضات والثنائيات، في توازٍ أو تقابل أو تكامل أو صراع، بدءاً من افتتاح الرواية بالحب والغزل، واختتاماً بالسحل والقتل، وتعليق جثة (سلمى) على عمود الكهرباء، تعليق المشنوقين. خاتمة مأساوية لبداية بهيجة، كما هي الحال في خاتمة مسرحية عطيل لشكسبير، وأمثالها من الخواتيم الجارحة.

واحتقت الرواية من بدايتها بعديد من الثنائيات الضدية والمتناقضة، فقد وضعت التصور الاسلامي للأحداث في مواجهة التصور الماركسي، وهذا ما نجده ابتداءً من عنوان الرواية التاريخية، الذي يعكس بعداً جغرافياً مكانياً، هو الإعصار والمئذنة، أو ثنائية بين الإعصار والمئذنة أنفسهما، ثم إدارة الصراع بين مدينتين اثنتين، إحداها العاصمة بغداد، وثانيتها الموصل، فضلاً عن ثنائيات تتجاوز الأمكنة والشوارع إلى الشخصيات والأفكار على حد سواء. مروراً بالمنزل الموصلي القديم، الذي يقابله المنزل الحديث الذي يريد عاصم أن ينقل خطيبته سلمى إليه، والكنيسة التي يعقد فيها الشيوعيون مؤتمرهم، يقابلها جامع الشيخ عجيل الذي يقود المقاومة الشعبية الإسلامية في المدينة.

ومن التقابلات المعبرة فكراً أن التدابير الأمنية لحركة الشواف اقتضت اعتقال الشيوعيين في سجن دون تعذيبهم أو قتلهم، ومع إخفاق الثورة وانتصار الشيوعيين، تمّ قتل الثوار بعمليات انتقامية وتصفيات دموية سحلاً وقتلاً وتعليقاً للمرأة على أعمدة الكهرباء، هذه طريقة فنية توضح الفرق بين التصور الإسلامي والتصور الماركسي للحياة في التمثلات والوقائع. ليس في الشعارات المتناقضة مع الممارسات، ناهيك عن ذهاب الشيخ هاشم عبد السلام إلى مقابلة صديقه وخصمه الفكري حنا جرجيس في مطبعة الأنوار، يقارعه الحجة بالحجة سلمياً، في حين يهدّد يونس سعيد عائلة زميله عاصم الدباغ، وينفذ تهديداته بقتل عمه عبد الرحمن وخطيبته سلمى.

يظهر لنا مما سبق بأن الكاتب قد اعتمد على الجانب الفكري والتاريخي للشخصيات التي شكّلها في عالمه الروائي أكثر من اعتماده على ملامح هذه الشخصيات، للدلالة على ما تحمله من نسق ثقافي تشكل بالأحداث التي مرّت في الرواية.

الخاتمة

- اتكأت رواية (الاعصار والمنذنة) على الوقائع التاريخية، لأبراز نسقها الثقافي بالكيفية التي تُدرك بها الحوادث المنقولة من جهة الراوي.
- يشكّل الوصف التام للمكان حضوراً واسعاً؛ إذ وظّف الكاتب المكان بوصفه بنية جمالية تحمل نسقاً ثقافياً للمجتمع الموصل الذي يمثل المرجع الواقعي والاجتماعي الذي تنقل عنه الرواية.
- عالجت الرواية مشكلة المثقف بوصفه أنموذج الوعي الاجتماعي والسياسي، وعبرت من خلال شخصياتها عن القيم التي تتحكم في علاقته بالسلطة من جهة، وبالواقع من جهة أخرى.
- هيمن الزمن الروائي، الذي تمثل بـ (أحداث ثورة الشواف) في الموصل، وألقى بظلاله على الشخصيات، مما يعكس مجموعة من الأنساق الثقافية والسياسية.
- حققت الرواية توثيقاً تاريخياً لأحداث عاشها العراقيون فوجهت الرواية إليهم، وسردت أحداث ربما كانت مجهولة لديهم، وعبرت عن نسق ثقافي ساد في زمن أحداثها وهو الصراع بين التيار الإسلامي والمد الشيوعي...

هوامش البحث ومصادره :

- (١) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، دار احياء التراث العربي، ط٣، بيروت، ١٩٩٩، ١٤/١٢٧ .
- (٢) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي: طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، ط١، بيروت، ١٩٩٨، ١٩٥ .
- (٣) عصر النبوية: إديث كريزويل، تر: جابر عصفور: دار الشؤون الثقافية العامة، ط ٢ بغداد، ١٩٨٦، ٢٨٩ .
- (٤) دليل الناقد الأدبي: ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، ط١ الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ٣٠٧ .
- (٥) الهوية والسرد (دراسات في النظرية والنقد الثقافي): نادر كاظم، دار الفراشة للنشر والتوزيع، ط٢ الكويت، ٢٠١٦، ٩ .
- (٦) في النقد الثقافي: قراءة في النسق والسياق، محمد بن زيان: <http://khierr.blogspot.com>
- (٧) السياق والأنساق (ما السياق؟ ما النسق؟): محمد عبد الكريم الحميدي، دار النفائس، بيروت، ٢٠١٣، ٥٣-٥٤ .
- (٨) القراءة النسقية (سلطة البنية وهم المحاينة): احمد يوسف، منشورات الاختلاف، ط١، الجزائر، ٢٠٠١، ١١٩ .

- (٩) المقامات: السرد والأنساق الثقافية: عبد الفتاح كيليطو، تر، عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال، ط ١ الدار البيضاء، ٢٠٠١ ص ٨ .
- (١٠) مقارنة نقدية لرواية الإعصار والمئذنة: حيدر قفة، مجلة الأدب الإسلامي، تصدر عن رابطة الأدب الاسلامي العالمية، السعودية، الرياض، العدد(٢١) لسنة ١٤١٩: ٣٩ .
- (١١) الإعصار والمئذنة (رواية معاصرة): عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، الكويت، ط٢، ١٩٨٧، ٤٠ .
- (١٢) م ن: ٤٤ .
- (١٣) م . ن : ٥١ .
- (١٤) م . ن: ٨٩ .
- (١٥) تجليات الرؤية وتشكيل الخطاب(قراءات في سرديات عماد الدين خليل): نبهان حسون السعدون، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠١٤، ١١٣-١١٤ .
- (١٦) الاعصار والمئذنة(رواية) مصدر سابق:١٣-١٤ .
- (١٧) تشكيل المكان في الخطاب السردى(قراءات في السرديات العراقية المعاصرة) نبهان حسون السعدون، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠١٤، ١٢ .
- (١٨) بنية الشكل الروائي(الفضاء. الزمن. الشخصية): حسن بحراوي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ١٩٩٠، ٢٩ .
- (١٩) الإعصار والمئذنة: ٩ .
- (٢٠) م . ن: ٥٣ .
- (٢١) الايقاع في رواية الاعصار والمئذنة لعماد الدين خليل: نبهان حسون السعدون، ضمن كتاب(جماليات تشكيل الخطاب، قراءات في السرديات الموصلية المعاصرة) دار غيداء للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ٢٠١٤، ٢١ .
- (٢٢) الاعصار والمئذنة(رواية): ٥٣ .
- (٢٣) م . ن : ٥٤ .
- (٢٤) م . ن: ١٠٤ - ١٠٥ .

